الكبيرة والتجارة البحرية، وتعاطوا الربا الذي حرمته المسيحية وحرمه الاسلام. ومكنتهم هذه الوظائف من اكتساب الاموال الطائلة، « فكان ذلك سبباً لنفوذهم... وربما... في بعض الاحيان، باعثاً على اضطهادهم».

وأعظم الشدائد التي قاساها اليهود في تلك القرون المظلمة كان في زمن محاكم التفتيش، فكانوا عرضة «للموت والتنصير والجلاء». وهاجر منهم ١٨٥٠٠٠ نفس، نصفهم إلى الممالك العثمانية «بتشويق اليهود القاطنين فيها وترغيبهم». لكن لم يأت فلسطين وسوريا منهم سوى السدس، وتفرق الباقون في القسطنطينية وسلانيك وغيرهما.

ولم تتحسن حالة اليهود الا قليلاً في مملكة بولونيا، « بسبب حرية حكومتها وتسامح أهاليها المسيحيين والمسلمين».

ولكراهة الناس لليهود أسباب عدة بعضها اقتصادي، كاشتغالهم «بالربا والاحتكار»، وأهمها دينهم «القاضي عليهم بعدم التشبه ببقية سكان المملكة وعدم التعامل والتحاب الا مع ابناء جنسهم... فدينهم يدعو إلى القومية... بخلاف المسيحيين، فانك تجدهم أقرب مودة للمسلمين يتحابون ويأتلفون ويشاركون في الاعمال، ودين كل منهم لا يختص بقومية واحدة وانما عام شامل لجميع الانسانية...».

وأوجدت «حركة الاصلاحات» التي حدثت في القرن السابع عشر «الأمم والدول الحديثة»، لكنها لم تؤثر في حالة اليهود الا بظهور نظرية مويز مندلسون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦)، أحد حاخامي برلين.

ووضع مندلسون نظرية «اليهودية الجديدة» وخلاصتها «تفريق الاعتقاد الديني الذي لم يزل حياً عن التقاليد التاريخية التي تلاشت... وأوشكت... أن تزول بالكلية، وبتعبير آخر تفريق الدين عن القومية».

ويضيف المؤلف انه، بحسب هذه النظرية، «ينبغي ان يكون لليهودي الالماني أو الفرنساوي مثلاً غيرة على الوطن وحمية في الدفاع عنه كالمسيحي الالماني أو الفرنساوي ولا يجوز ان يعتبر قوميته القومية اليهودية ووطنه فلسطين». ويتابع قوله ان مندلسون لم يكن منفرداً بهذا الرأي، وانما «مترجماً عن أفكار جميع اليهود المتوطنين في أوروبا الغربية»، وانه نتج عن ذلك ان ألغت حكومة بروسيا (Prussia) جميع الانظمة والقوانين الاستثنائية الخاصة باليهود، وساوتهم ببقية أهالي المملكة المسيحيين الالمان. وفي اثر حدوث «الانقلاب الكبير» في فرنسا، ونشر لواء الحرية والمساواة والاخاء، زال الضغط والاضطهاد عن اليهود في ممالك اوروبا الغربية جميعاً، وأصبحوا متساوين في الحقوق مع افراد الامة المنسوبين اليها، و «صرفوا النظر عن صهيون وعن الرجوع إلى فلسطين وتأسيس حكومتهم فيها».

وينهي المؤلف هذا الجزء من الفصل الرابع بقوله:

«ولغاية النصف الاخير من القرن التاسع عشر، يمكن ان يقال ان الفكر الصهيوني لم يظهر في مكان... ولم نسمع نغمة مخلة بمبدأ الحرية emancipation ولا بمبدأ التشبه assimilation الا في بعض... تشبثات... لا يعبأ بها».

٣ ـ بدايات صهيونية مخففة: أما ما يعنيه بـ «بعض التشبثات»، فهي تصاريح وكتابات ومساع قام بها عدد من اليهود والاوروبيين المسيحيين من غير اليهود ما بين القرن السادس والقرن التاسع عشر، ابتداء بالدعوة الفاشلة لـ «المسيح» اليهودي المزيف شبتاي زفي (Shabatai Zvi)